معرفة الله عز وجل

وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية

الأستاذ الدكتور

مصطفى حلمي

الألوكة

www.alukah.net

معرفة الله عز وجل
وطريق الوصول إليه عند ابن تيمية

تأليف: د. مصطفى حلمي

الأستاذ بكلية دار العلوم- جامعة القاهرة

والحائز على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الدعوة

دار الدعوة للنشر والتوزيع

1416هـ-1995م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل لـه، ومن يضـلل فلا هادي له، ونشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وحـده، لا شـريك لـه، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

أما بعد:

فإن عنوان الكتاب قد يوهم القارئ لأول وهلة بأنني أحد أتباع (الدراويش) الـداعين إلى هجـر الـدنيا إلي الآخـرة، السـاعين بحسين نية إلى (تنويم) الأمة وتخديرها، وهو منزلق خطر لأنه يؤدي إلى أن تخضع الأمة لأعدائها، بـدلًا من حثهـا على الأخـذ بأسـباب القـوة، أي التقـدم العلمي التكنولـوجي، والإنتـاج الصناعي والزراعي والتنافس في اللحاق بالعصر الذي يسرع الخطى إلى القرن الواحد والعشرين!.

لذلك أرجو من القارئ أن يمهلني ليقف بنفسه على مضـمون الكتاب وهدفه، وسيري بعد الإلمـام بمضـمونه أنـني أسـعى - بخلاف المتوهم - إلى تعميق مفهوم الأصالة للأمـة الإسـلامية الـتي أنتمي إليهـا، فيقـودني ذلـك إلى إثبـات أن العقائـد هي القائد والدليل للأمة الإسلامية لتحيا في نور إشعاعاتها: فـإلي معرفة الله عز وجل حـق المعرفـة تقتضـي توحيـده وإفـراده بالعبادة حبًا وخوفًا ورجاءً.

كما أن الإقرار بنبوة نبينا محمـد - صـلى اللـه عليـه وسـلم -، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين،

يقتضي اتخاذه أسوة حسنة في العقائد والأعمال كلها. فالحق أنه لا طريقة (إلا طريقة الرسول - صلى اللـه عليـه وسـلم -، ولا حقيقـة إلا حقيقتـه، ولا شـريعة إلا شـريعته، ولا عقيـدة إلا

عقيدته، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطنًا وظاهرًا)[1].

إن عقائد الإسلام - وهي قلعته الصامدة طوال تاريخ أمته - تتعرض في الآونة الأخيرة إلى هجمات متتابعة من الخارج والداخل، لم تشهد لها مثيلًا من قبل! إذ عندما علم أعداؤها بالخارج صعوبة اختراقها، أخذوا يتحايلون بكافة الطرف لإقناع المدافعين عنها بعدم جدوى المقاومة - مستخدمين أسلحة الحرب النفسية والنفاذ إلى العقول بالشعارات البراقة، ولا بأس من التزييف، مضافًا إليه استخدام الوسائل الحديثة من أقمار صناعية وشبكة تلفاز تصل إلى الأسماع والأبصار إلى أنحاء المعمورة في ثوان، لتسارع في إحداث الأثر المطلوب في غسيل المخ وتحطيم العقائد.

وفي الداخل يوحون إلى أوليائهم من [منّظِري التبعية] التخذيل بإشاعة مزاعم تخدم نفس الغرض، كالادعاء بان الاستمساك بالعقائد والتراث القومي والثبات على المبادئ يدل على التحجر والرجعية والجمود والانغلاق والإحجام عن اللحاق بالعصر.. إلخ.

وهكذا ترتفع أصواتهم بإلحاح لإقناعنا بضرورة معايشة العصر واللحاق بـ (النظام العالمي الجديد) لأنه الكفيل بحمايتنا وتحقيق السلام والرخاء، ومن ثم يقتضي تذويب العقائد وتوحيد الثقافات.

وهناك أقلام مشفرة في وجوهنا بأيدي بني جلدتنا، طاعنة في عقائدنا لأنها بزعمهم تستند إلى نصوص وسمعيات لا تصمد أمام الفكر الفلسفي العقلي والجدل المنطقي، فعلينا بالحداثة وقطع الصلة بجذورنا للحاق بالعصر!.

[1] ص 768 شرح العقيدة الطحاوية ج 2 لابن أبي العز- تحقيق د. عبد الله التركي وشعيب الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة، بيروت 1412هـ- 1991م.

وأمام هذه الظواهر المستجدة والمتفاعلة مع حرب نفسية ومعارك كلامية لم تشهدها أمتنا من قبل بمثل هذه الضراوة، فلا يسع الباحث في العقائد إغفالها، بل إن عرضها وتحليلها سيبين لنا الحكمة الجلية من الاستمساك بالعقائد في المحافظة على هوية الأمة، وهي نقطة البدء - أو هكذا ينبغي أن تكون - في أي خطة تيمية. فإذا كانت الحاجة ماسة إلى التخطيط في مجالات الاقتصاد والسياسة والإنتاج والتسليح وغيرها من مجالات القوة (المادية) فإن الحاجة أمسّ إلى إحياء عقائدها الصحيحة لأنها غذاء (الروح) التي بدونها يصبح جسد الأمة بلا حراك.

ونكرر القول بأن المانع من الذوبان - أو التلاشي - في (النظام العالمي المقترح) هو الاستمساك بالعقائد، والعض عليها بالنواجذ. والمدخل الرئيسي للفهم والاقتناع لدي المثقفين والصفوة - بل عامة المسلمين - مخاطبة العقول بالأدلة، والنفاذ إلى القلوب والأرواح بطريقة علماء السنة التي يمتزج فيها العقل والقلب، والمعرفة والسلوك.

وهذا هو علة اختيارنا لمنهج ابن تيمية، باعتباره أحد علماء السنة المتسلح بمنهجهم، الذي من سماته:

أ- الاستناد إلى نصوص الكتاب والسنة وبيان أوجه الاستدلال العقلي البرهاني، واكتفائها الذاتي وغناها عن الأخذ من مناهج المتفلسفة والمتكلمين الذين ظنوا أنهم وحدهم أصحاب منهج الاستدلال العقلي.

ب- يرى أنه لابد من الجمع بين العلم النظري والإرادة أو السلوك في وحدة متناسقة لترسم الطريق المستقيم أمام المسلم فلا تتوزع شخصيته بين طريقتي المتكلمين أو المتفلسفة - المكتفين بالنظر العقلي - والصوفية الظانين أنهم استأثروا وحدهم بمنهج (الوصول) إلى الله عز وجل.

أو أنهم وحدهم يسلكون الطريق إلى الله عز وجل.

يقول ابن تيمية: [والطريق إلى الله إنما هي أن ترضيه بأن تفعل ما يحبه ويرضاه... وولاية الله موافقته بأن تحب ما يحب وتبغض ما يبغض، وتكره ما يكره، وتسخط ما يسخط، وتوالي من يوالي، وتعادي من يعادي][2].

ج- مر العالم الإسلامي بمحن وابتلاءات في عصره كما هو حادث الآن، إذ كانت هناك الحروب الصليبية في نهايتها أضف إليها حروب التتار، وبينما كانت الناس تفر من خلافاتهم، كان يقوم وحده بتثبيت الناس والجند، حاضًا على الجهاد، رافعًا للمعنويات. يصف لنا ابن كثير أحد هذه المواقف الحرجة، فيذكر أنه عندما قويت الأراجيف بوصول التتر، وتحقق عود السلطان إلى مصر، ونادى ابن النحاس متولي البلد في الناس من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق، فتصايح النساء والولدان، ورهق الناس ذلة عظيمة، وزلزلوا زلزالًا شديدًا، وغلقت الأسواق وتيقنوا أن لا ناصر لهم إلا الله عز وجل.. إلخ.

ولكن ابن تيمية سافر إلي مصر واستحث السلطان حتى جرد العساكر إلى الشام، ثم أخذ يستنهض الهمم، ويشجع الجند على القتال، وأخذ يحلف للأمراء والناس أنهم في هذه الكرة منصورون، فيقول له الأمراء: قل إن شاء أدبه، فيقول إن شاء الله تحقيقًا لا تعليقًا، وكان يتأول في ذلك أشياء من كتاب الله منها قوله تعالى: {ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ} [الحج: 60][3].

وأود أن أشكر الشيخ: محمد صفوت نور الدين الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية لمعاونته في إعداد الكتاب. وكذلك الشيخ: سيد عباس الحليمي الذي أشرف على جمعه ومراجعته، وشكرًا لدار الدعوة بالإسكندرية التي ساهمت في طباعته ونشره.

ونسأل الله عز وجل أن ينفعنا والمسلمين بهذا الكتاب، وأن يعفو عن الأخطاء، فالتوفيق والسداد منه سبحانه، والأخطاء

[2] ص 712 الفتاوي ج 1 ط الرياض 1389هـ.
[3] ابن كثير: البداية والنهاية ج 14 ص 15، 16، 23.

من أنفسنا ومن الشيطان. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الإسكندرية في 2 ربيع الأول 1415هـ.

10 أغسطس 1994م.

المبحث الأول

*- يتناول التعريف بابن تيمية (حياته وعصره).

*- والمبادئ العامة التي يرسي أسسها ابن تيمية في قضايا العقيدة.

التعريف بابن تيمية

حياته وعصره:

ولد الشيخ في بيت ثقافة إسلامية سلفية، فإن جده كان محدثًا مشهورًا وكذلك كان أبوه، يصف ابن تيمية جده بقوله: (كان جدنا عجبًا في حفظ الأحاديث وسردها وحفظ مذاهب الناس بلا كلفة) ويصفه بأنه كان معدوم النظير في زمانه، رأسًا في الفقه وأصوله[4].

أما والده فإنه (أتقن العلوم وأفتى وصنف وصار شيخ البلد بعد أبيه.. وكان محققًا، كثير الفنون، وكان من أنجم الهدى، وإنما اختفى من نور القمر وضوء الشمس. ويشير الذهبي في هذا الوصف إلى كل من أبيه وابنه[5].

وتلقى شيخنا للفقه والحديث والتفسير والعلوم الأخرى، وكان مضرب المثل في قوة الحفظ والذكاء. كلما استطاع أن يستوعب ثقافة العصر كما قلنا ويجيدها ويحاجج أهلها عن مقدرة ودراية. يصفه تلميذه الذهبي بأنه (برع في الرجال، وعلل الحديث وفقهه، وفي علوم الإسلام وعلم الكلام، وغير

4 الألوسي- جلاء العينين في محاكمة الأحمدين ص 18.
5 نفس المصدر 19.

ذلك. وكان من بحور العلم والأذكياء المعدودين والزهاد الأفراد. وسارت بتصانيفه الركبان، لعلها ثلاثمائة مجلد)[6].

وكان عصره يموج بالتيارات السياسية العنيفة، فإن حروب التتار التى بدأت تغزو البلاد منذ عام 616هـ- 1229م، وظلت أمواجها تتلاحق دفعة وراء الأخرى عبر السنوات الطويلة حتى سنة 680 هـ- 1281م حيث وصلت إلى حماه، واشترك ابن تيمية بنفسه في أحد المعارك. إلى جانب صراع المماليك على السلطة في الداخل.

وكان سقوط بغداد عام 656هـ- 1257م على أيدى التتار هو النتيجة الطبيعية التي تمخض عنها ضعف الدولة العباسية، لأنها بدأت منذ أواخر القرن الرابع، وأوائل القرن الخامس (وكأنها جدار يريد أن ينقض وكان لابد له أن ينتهى إلى إحدى النهايتين: إلى الانحلال التام والفناء أو اليقظة والإحياء)[7]. ولكن مع الأسف انتهت إلى ما نعرفه من انقسام الدولة الإسلامية الكبرى إلى دويلات عديدة، وعاصر ابن تيمية دولة المماليك.

وكان للشيخ دور بارز في مقاومة الغزو التتارى وهذا يعطينا فكرة عن ارتباط العقيدة بالعمل عنده. وقد أفرغ ما في جعبته من آيات وأحاديث لحث المسلمين على الجهاد، وتخليصهم من روح اليأس والهزيمة التي دفعت بجموع كبيرة منهم إلى الفرار هربًا من جحافل الجيش التتارى، الذي شرب من كأس النصر حتى الثمالة، وانتشى بروح السيطرة والتفوق.

وفي مقابل الحرب والغزو الخارجي الذى ملأ التاريخ بصفحات عديدة للمآسي والكوارث التي أصابت العالم الإسلامي. كانت هناك في الداخل تيارات عدائية تتمثل في

[6] الذهبي- تذكرة الحفاظ ج 4 ص 288. وقد لاحظ لامست وحدة النظرة الدينية عند ابن تيمية في قوتها ودوامها (حيث كانت الأفكار التي عرضها في مطلع فجر تأليفه هي نفس الأفكار التي تناولها شرحًا وتفصيلًا في سائر تواليفه المتاخرة) ص 835 من كتاب أسبوع الفقه - ابن كثير- البداية ج 13 ص 82.

[7] د. جمال الدين الشيال- تاريخ الدولة العباسية ص 89.

روح الهزيمة، وبث روح اليأس، وترويج الإشاعات التي تروع القلوب وتخلعها لكي يسلم الناس دون قتال. يقول ابن كثير:

(وأشاع المرجمفون بأن التتر وصلوا إلى حلب، وأن نائب حلب تقهقر إلى حماة، ونودى في البلد بتطبيب قلوب الناس وإقبالهم على معايشهم)[8].

ومما زاد الأمر سوءً في هذا العام- أى عام 700هـ- 1300م حيث بدا التتار يقصدون بلاد الشام - أن هذه البلاد شهدت شتاء قارسًا مما أدى إلى صعوبة الهجرة (حيث جعلوا يحملون الصغار في الوحل الشديد والمشقة على الدواب والرقاب، وقد ضعفت الدواب من قلة العلف، مع كثرة الأمطار والزلق والبرد الشديد والجوع وقلة الشيء)[9].

رأى ابن تيمية هذه الظروف العصيبة التي تضافرت فيها توالى انتصارات الأعداء، مع ضعف المسلمين وبأسهم، ومما زاد الطين بلة الأحوال الجوية التي جرت على غير المألوف. وهنا يتجلى إيمان الشيخ، وتظهر آثار التشبع بالروح السلفية فعالة قوية، وفي الوقت الذي كان بعض الفقهاء غيره يتركون دمشق فرارًا بأنفسهم وعائلاتهم إذ (كان قد خرج جماعة من بيوتات دمشق، كبيت ابن صصرى، وبيت ابن فضل الله وابن منجا وابن سويد وابن الزملكاني وابن جماعة)[10].

وبذل الشيخ جهدًا كبيرًا ليقف في وجه كل العوامل التي تدعو إلى الهزيمة واليأس، معلنًا على الملأ آراءه الكفيلة بتحويل الهزيمة إلى نصر. فأخذ يحرض الناس على القتال بدلًا من الفرار (وساق لهم الآيات والأحاديث الواردة في ذلك، ونهى عن الإسراع في الفرار، ورغب في إنفاق الأموال في الذب عن المسلين وبلادهم وأموالهم، وأن ما ينفق في أجرة الهرب إذا أنفق في سبيل الله كان خيرًا)[11].

---
[8] ابن كثير- البداية والنهاية ج 14 ص95.
[9] نفس المصدر 15.
[10] ابن كثير- البداية والنهاية ج 14 ص 14.
[11] نفس المصدر والصفحة.

كذلك سافر بنفسه إلى مصر لحث السلطان على الدفاع عن الشام، واقنعه بضرورة تجهيز الجيش لهذا الغرض. وجاء ضمن أقواله للسلطان في هذا الصدد (لو قدر أنكم لستم حكام الشام ولا ملوكه، واستنصركم أهله، وجب عليك النصر، فكيف وأنتم حكامه وسلاطينه، وهم رعاياكم وأنتم مسئولون عنهم؟!)[12].

وعندما حان أوان المعركة المرتقبة بأرض الشام، ووصلت جحافل التتار إلى حمص وبعلبك، ولم يكن جيش مصر قد وصل للنجدة بعد، تخبط الناس ومسهم الفزع والذعر، وعادوا يتحدثون عن التقهقر، ولكن ابن تيمية عاد ينفث من قوة إيمانه في صدور الأمراء والجند، مؤكدًا لهم النصر، متأولاً قوله تعالى: {وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ} [الحج: 60]، وإذا ما طلبوا منه ذكر مشيئة الله، أجابهم (إن شاء الله تحقيقًا، لاتعليقًا)[13].

أما عن تردد بعض المسلمين في حرب التتار لأنهم أعلنوا الإسلام تظاهرًا، فقد أوضح لهم شيخنا هذا اللبس، إذ إن التتار عنده كالخوارج الذين خرجوا على علي ومعاوية، زاعمين أنهم أحق بالرياسة منهما. وكذا يفعل التتار، فبينما هم متلبسون بالمظالم والمعاصي (يزعمون أنهم أحق بإقامة الحق بين المسلمين).

وحتى لا يدع مجالًا للشك في صحة رأيه لإدخال الطمانينة والثبات في قلوب المترددين، أعلن لهم في وضوح قاطع (إذا رأيتموني من ذلك الجانب - يقصد التتار - وعلى رأسى مصحف فاقتلوني)[14].

وقاتل الشيخ مع الجند، حاثًا إياهم على الإفطار في شهر رمضان، لأن الفطر أقوى لهم، وذلك تشبهًا بالمسلمين حين أفطروا عام الفتح تنفيذًا لنصيحة الرسول - صلى الله عليه وسلم -[15].

---

[12] نفس المصدر ص 15.
[13] نفس المصدر ص 23.
[14] ابن كثير- البداية والنهاية ج 14 ص 24.
[15] نفس المصدر.

ومات - رحمه الله - بسجن قلعة دمشق في العشرين من شوال سنة (728هـ) بسبب كيد بعض علماء عصره لدى السلطان الناصر، وكان صديقًا لابن تيمية، وكان يقول في سجنه: (المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه).

ومن المفارقات الملفتة لنظر الدارسين لحياته - كما لاحظ الشيخ محمد أبو زهرة: (أن السلطان الناصر عندما كان يلاقي التتار يرجو الشيخ أن يكون بجواره، ليستمد منه - بعد الله - البأس والقوة. أما هو فلم يستمد القوة إلا من الله، إذ لو كان يستمدها من الناصر ما ألقي به في غيابات السجن، فكان الدليل القاطع على أنه كان متبوعًا ولم يكن تابعًا، وحرًا سيدًا، وليس عبدًا رقيقًا)[16].

(كذلك يعلل نجاح خصومه بإدخاله السجن أكثر من مرة أنهم كانوا يقومون بالتدبير ليلًا والاجتهاد بألا يسمع قوله، ولو سمع قوله ما استطاعوا له كيدًا)[17].

[16] من كتاب (ابن تيمية) (ص 91) للشيخ محمد أبو زهرة. ط دار الفكر العربي- بدون تاريخ.
[17] المصدر نفسه ص (98).

مدخل الدراسة

المفاهيم الضرورية في قضايا العقيدة

سنبدأ بعرض يعض المفاهيم الضرورية كمدخل للدراسة لاسيما في أمهات المسائل الكبرى كفطرية المعرفة بالله عز وجل، والتوحيد، وإثبات الصفات الإلهية؛ والترجيح بين الآراء الدائرة حول الصلة بين الشرع والعقل؛ وإثبات أن ركائز أصول الدين قد بينها الرسول - صلى الله عليه وسلم - للصحابة رضى الله عنهم، بالأدلة والبراهين العقلية خلافًا لظن المتكلمين والفلاسفة الذين توهموا بأنهم أتوا بما لم يأت به الأوائل! بينما الرأى الصحيح المجمع عليه بواسطة علماء الحديمث والسنة أن الصحابة هم الأعلم والأحكم في معرفة أصول الدين واستيعابها - لا الأجيال التي جاءت بعدهم. وعندما افتقدت هذه الأجيال طريقة الأوائل ولم يعرفوها، اختلطت عليهم الصلة بين الشرع والعقل، فسعوا إلي اختراع أساليب في البرهان والجدل مترجمة عن الفلسفة اليونانية، متخذين لأنفسهم دور المنافحين عن العقائد بالأدلة العقلية، ومن ثم ظهر في أبحاث الدارسين مصطلح (العقليين) مقابل (النصيين)؛ بينما يوضح التحقيق العلمي الذي أجراه ابن تيمية أن المسلمين الأوائل - لا سيما في عصر الصحابة والتابعين لم يعرفوا هذا الفصل، أو التنارع بين الشرع والعقل، لأنهم استدلوا بعقولهم كما أمرهم القوآن الحكيم على صحة رسالة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع صحبتهم له عليه الصلاة والسلام والتعلم والتلقي منه مباشرة، وفهمهم لأسرار اللغة العربية، واستجابتهم لأوامر القرآن الكريم بالنظر والتدبر وإعمال العقل.

لذلك فإن ابن تيمية لا يقر المتكلمين والفلاسفة على قولهم بأن أدلتهم - التى ظنوا أنها عقلية تفوق أدلة الكتاب والسنة؛ بل أثبت من خلال حواره مع مخالفيه بان أدلة الشرع تتضمن الأدلة العقلية من الطراز الأكمل، ثم ذهب إلى إثبات ما هو أبعد من هذا، فكشف النقاب عن عدم (معقولية) بعض هذه الأدلة كما سياتي عند الاستدلال على إثبات أن القرآن الكريم

كلام الله - عز وجل - تكلم به، وإثبات سائر صفاته وأفعاله تعالى.

العلم ضروري بوجود الخالق عز وجل:

يرى ابن تيمية أن العلم بالله عز وجل أمر فطري ضروري، ولهذا جاءت الرسل لتأمر الخلق أن يعبدوا الله وحده وأن يطيعوا رسله لا بأن يكتسبوا[18] علمًا نظريًا بوجود الخالق وصدق رسله كما يظن المتكلمون والمتفلسفة - لكن من جحد الحق أمروه بالإقرار به، وأقاموا الحجة عليه. وبينوا معاندته وأنه جاحد للحق الذي يعرفه، وكذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم -. كانوا يعلمون أنه صادق ويكذبونه[19].

أي أن معرفة الله تعالى الفطرية في النفس البشرية يدعمها الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويفصلها، فهو المصدر الوحيد الهادف لمعرفة الله تعالى وعبادته لمن يرغب بإخلاص وتجرد، ولا ينكر ذلك إلا معاند مصر على الإشاحة بوجهه لكن لا يرى نور الحق!

ومن موجبات رحمة الله عز وجل وكرمه وحكمته أنه علّم الإنسان ما لم يعلم، فإن أول ما أنزل الله تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ} [العلق: 1 - 5].

فذكر أنه الأكرم وهو أبلغ من الكريم وهو المحسن غاية الإحسان، ومن كرمه أنه علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم فعلمه العلوم بقلبه والتعبير عنها بلسانه)[20].

وينتقل ابن تيمية من شرح هذه الآيات وتفسيرها إلى استخلاص أنها أيضًا حجة على من أنكر قدرة الله تعالى، فإن من رأى العلقة قطعة من دم فقيل له هذه العلقة يصير منها

---

[18] ص 35 النبوات.
[19] يعنى باكتساب العلم النظري الطريقة التي أحدثها المتكلمون فقالوا بالحدوث والقدم واستعملوا بعض الاصطلاحات الفلسفية اليونانية وظنوا أنهم يشغلون بها على صحة العقائد الإسلامية من حيث إثبات وجود الله عز وجل وحدوث العالم.
[20] النبوات ص 163.

إنسان يعلم العلوم بأنواعها لكان يتعجب من هذا غاية العجب وينكره أعظم الإنكار ومعلوم أن نقل الإنسان من كونه علقة إلى أن يصير إنسانًا عالمًا قادرًا كاتبًا أعظم من جعل مثل هذا الإنسان يعلم ما أمر الله به وما أخبر به، أي بعبارة أخرى فإذا كان الله تعالى علمه هذه العلوم (فكيف يمتنع عليه أن يعلمه ما يأمره به وما يخبره به)؟ ولهذا أرسل إلى بني آدم الرسل فمن موجبات حكمته عز وجل إرسال الرسل من جنس البشر وبلسانهم (فهو أتم في الحكمة والرحمة، وذكر سبحانه أنهم لا يمكنهم الأخذ عن الملَك وأنه لو نزل ملك لكان يجعله في صورة بشر ليأخذوا عنه، ولهذا لم يكن البشر يرون الملائكة إلا في صورة الآدميين كما كان جبريل يأتي في صورة دحية الكلبي)[21].

وششطرد ابن تيمية في شرح الأدلة، وهي الآيات والبراهين التي يحتوي عليها القرآن الكريم ليعلمنا أنها أدلة عقلية بصورة لا تقبل الشك، وتوصل إلى البرهان مباشرة بلا حاجة الي مقدمات أخرى كما يفعل المناطقة، ولخص بالذكر الآيات المخلوقة في الكون فإن المخلوقات كلها (آيات للرب، فما من مخلوق إلا وهو آية له، هو دليل وبرهان وعلامة على ذاته وصفاته ووحدانيته[22] عز وجل.

لقد لفت نظرنا شيخ الإسلام إلى السمات العقلية لأدلة الشرع. وإذا كانت الأدلة الشرعية عقلية أيضًا، فإن ابن تيمية يعلل نشأة فكرة الفصل بين العقل والشرع إلى التقصير في فهم وتقدير ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - إذ أخرج المتكلمون والفلاسفة ما تعلم دلالته بالعقل عن مسمى الشرع، وعندئذ حدث التنازع في صرفة الله وتوحيده وأصول الدين:

هل يجب ويحصل بالشرع؟

أو يجب ويحصل بالعقل؟

أو يجب بالشرع ويحصل بالعقل؟

على ثلاثة أقوال.

[21] نفسه ص 164.
[22] نفسه ص 175.

وبعد عرض آراء الأقوال المختلفة ونسبتها إلى أصحابها يقـرر أن أعـدل الأقـوال هي أن الأفعـال مشـتملة على أوصـاف تقتضي حسنها ووجوبها وتقتضي قبحها وتحريمها وإن ذلك قد يعلم بالعقل، لأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد بلوغ الرسـالة كمـا قال {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} [الإسراء: 15].

ومما يزيد الأمر وضوحًا أن أكـثر النـاس يقـرون بـأن الأحكـام العمليـة تعلم بالعقـل أيضًـا، فبالعقـل يعـرف الحسـن والقبح فتكون الأدلة العقلية دالة على الأحكام العمليـة أيضًـا، ويجـوز أن تسـمى شـرعية لأن الشـرع قررهـا ووافقهـا أو دل عليهـا وأرشد إليها[23].

فكيـف يسـوغ وصـف أدلـة الأحكـام العمليـة بأنهـا عقليـة - بالإضافة إلي كونها شرعية - ولا يسـوغ إطلاق نفس الوصـف على أدلـة أصـول الـدين الـتي تشـتمل على أهم المطـالب العاليـة كإثبـات الـرب عـز وجـل، ووحدانيتـه، وصـدق رسـله، وقدرته على المعاد؟.

إنهـا الأولى أن تعـد شـرعية عقليـة في آن واحـد، وقـد بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - الأدلـة والـبراهين والحجج، وعلى المسلمين اتباعه في قضـايا أصـول الـدين كاتباعـه في قضـايا الفـروع أي المسـائل الفقهيـة في العبـادات والمعاملات[24].

وكان الدافع الرئيسي لابن تيمية من كـل مـا تقـدم هـو إقنـاع المتكلمين والفلاسـفة أن أدلـة القـرآن والسـنة كافيـة بـذاتها لمعرفة العقائد الإسلامية والحجاج بها أمـام المخـالفين، وهـو صاحب فكرة أن الأدلة الشرعية هى في ذاتهـا عقليـة أيضًـا -

[23] وهو يـرى من سياق عرضـه للآراء أن معرفـة اللـه عـز وجـل وتوحيـده وأصول الدين تجب وتحصل بالشرع مع التقيد بالتقسـيم الـذي يلتزمـه عـد تناوله للشرع بأنه يتفرع الى ما هو سمعي وما هو عقلي، وكثيرًا مـا يتفـق الدليلان الشرعي والعقلي معًا.
وفي المسـائل الفقهيـة من العبـادات والمعـاملات لا تحليـل وتحـريم إلا بموجب أوامر الشرع.

[24] ويشرح ابن تيمية لفظ السـنة بمعناهـا الشـامل، فـإن السـنة الـتي يجب اتباعها هي سنة رسول اللـه - صـلى اللـه عليـه وسـلم -، والـدة تـذكر في الأصول والاعتقادات، وتـذكر في الأعمـال والعبـادات وكلاهمـا يـدخل فيمـا أخبر به وأمر به. ص 63 النبوات.

أى أن مصدرها الشرع ويستدل بها بطريق العقل أيضًا كما سيأتي تفصيلًا، ومن ثم فلا فصل بين الشرع والعقل، ولا حاجة لابتداع أدلة مستمدة من الفلسفة اليونانية لاستخدامها في المناظرة والحجاج العقلي، وأن هذا الفصل لم ينشأ إلا بعد القرون المفضلة الأولى إذ كان أهلها على دراية تامة بنصوص الكتاب والسنة فهمًا واستيعابًا واستدلالًا شرعًا وعقلًا.

بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - الأدلة والبراهين والحجج:

قال تعالى: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى} [طه: 124، 126].

وقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - في خطبته يوم الجمعة بعرفة:

خير الكلام كلام الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة.

هذا هو تعريف الهدى ووصف المهتدين.

ولذلك فمن أقوال الإمام أحمد المأثورة (أصول الإسلام أربعة: دال ودليل ومبين ومستدل، فالدال هو الله والدليل هو القرآن والمبين هو الرسول - صلى الله عليه وسلم -، قال الله تعالى: {لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل: 44]، والمستدل هو أولو العلم وأولو الألباب الذين أجتمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم[25].

ومن هذه الأدلة: الاستدلال على الخالق بخلق الإنسان فهى طريقة عقلية صحيحة، وهى شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها وبينها وأرشد إليها، وهى عقلية، فإن نفس كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكن ومولودًا ومخلوقًا من نطفة ثم من علقة - هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به

[25] النبوات ص 39.

الرسول أو لم يخبر، لكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمر أن يستدل به ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به. وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته.

وأيضا يستدل ببدء الخلق على البعث وقدرة الرب عز وجل على المعاد كقوله تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ } [الحج: 5] ومثل قوله: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا } [مريم: 66، 67] ومثل قوله: {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ} [يس: 78، 79].

وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن مثل الاستدلال بالسحاب والمطر، وهو مذكور في القرآن في غير موضع وهو عقلي شرعي، كما قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ} [السجدة: 27] فهذا مرئى بالعيون.

وقال تعالى: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ} [فصلت: 53] ثم قال: {أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53].

فالآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق هى آيات عقلية يستدل بها العقل الإنسانى على أن القرآن حق.

ولكن كثيرًا من الناس لا يسمى دليلًا شرعيًا إلا ما دل بمجرد خبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويقتصرون بذلك على علم أصول الفقه لأن المقصود منه معرفة الأحكام الشرعية العملية فيجعلون الأدلة الشرعبة ما دلت على الأحكام العملية فقط، وهو اصطلاح قاصر، إذ لابد أيضًا من الاستدلال بما دل به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بإرشاده وتعليمه من مسائل أصول الدين أيضًا كإثبات الرب عز وجل بوحدانيته وصدق رسله وقدرته على المعاد لأن الشرع دل عليها وأرشد إليها.

والمقصود أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين للناس الأدلة والبراهين الدالة على أصول الدين كلها كما ذكر سبحانه هذا في مواضع، وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ} [البقرة: 159].

وقوله: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: 185].

وقوله تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } [البقرة: 151].

وقد قال: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ} [الأحزاب: 34] فأخبر سبحانه في غير موضع عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. فالتلاوة والتزكية عامة لجميع المؤمنين، فتلاوة الآيات يحصل بها العلم، فإن الآيات هى العلامات والدلالات فإذا سمعوها دلتهم على المطلوب من تصديق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما أخبر به والإقرار بوجوب طاعته.

وأما التزكية فهى تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده.

وسميت آيات القرآن آيات وقيل أنها آيات الله كقوله: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ} [البقرة: 252] لأنها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد فهي تدل على ما أخبر به وعلى ما أمر به ونهى عنه، وتدل أيضًا على أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - صادق، إذ كانت مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها، وقد تحداهم بذلك.

وسنكتفى بقضيتين من أهم القضايا التي نوقشت وهما:

1- التوحيد.

2- إثبات صفات وأفعال الله عز وجل.

(1) عقيدة التوحيد بأدلة القرآن:

إن من أعظم ما كان عليه المشركون قبل مبعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو دعوى الشريك لله والولد، فجاء القرآن مملوءًا من تنزيه الله عن هذين وتنزيهه عن المثل والولد[26]، مثل ما ورد في سورة الإخلاص وسورة الأنعام في مثل قوله: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ} [الأنعام: 100].

وفي سورة سبحان: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} [الإسراء: 111].

وفي سورة الكهف في أولها: {وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا} [الكهف: 4] وفي آخرها: {أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ} [الكهف: 102] {وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

وفي [مريم] تنزيهه عن الولد في أول السورة وآخرها ظاهر وعن الشريك في مثل قصة إبراهيم، وفي الأنبياء تنزيهه عن الشريك والولد، وكذلك في [المؤمنون]: {مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ} [المؤمنون: 91] وأول الفرقان: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ} [الفرقان: 2].

والقصد منها الرد على المشركين المقرين بالصانع ومن جعلَ له ولدًا من المشركين وأهل الكتاب. أما مذهب الفلاسفة الملحدة فدائر بين التعطيل (أي إنكار الصانع) وبين الشرك والولادة كما يقولونه في الإيجاب الذاتي (أي الصدور عن الواحد). فإنه أحد أنواع الولادة، وهم ينكرون معاد الأبدان، وقد قرن بين هذا وهذا في الكتاب والسنة في مثل قوله: {وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا} [مريم: 66، 67] إلى قوله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} [مريم: 88]. وهذه في سورة مريم المتضمنة خطاب النصارى ومشركي العرب، لأن الفلاسفة داخلون فيهم، فإن اليونان اختلطوا بالروم فكان فيها خطاب هؤلاء وهؤلاء وفي الصحيحين عن أبي

[26] النبوات ص 18.

هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: يقول الله تعالى: (شتمنى ابن آدم وما ينبغي له ذلك، وكذبني ابن آدم وما ينبغي له ذلك، فأما شتمه إياي فقوله أني اتخذت ولدًا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد، وأما تكذيبه إياي فقوله لن يعبدني كما بدأني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته)[27].

[27] النبوات ص 18.

الذرائع إلى الشرك:

لما كان الإسلام دين التوحيد الخالص - كما بينا - فينبغي على المسلم المحافظة على هذه العقيدة بحيث لا تشوبها شائبة أيًا كانت.

وهناك من الأمور التي تحوم حول الشرك - وتعد من الكبائر - نحذر منها ونفترض في البداية - بسبب عوامل التنشئة والتقليد الأعمى - والأمية الدينية أن من يفعلها يجهل أنها قد تؤدي إلى الشرك. أما إذا علم أنها كذلك وأصر عليها فإنها توقعه في الشرك بلا جدال. يقول الإمام الذهبي في كتاب (الكبائر): وأعلم أن كثيرًا من هذه الكبائر بل عامتها - إلا القليل - يجهل خلق من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه ولا الوعيد. فهذا الضرب فيه تفصيل ينبغي للعالم أن لا يستعجل على الجاهل بل يرفق به ويعلمه مما علمه الله، ولا سيما إذا كان قريب العهد بجاهليته..)[28].

ومنها:

1- التوسل بالأضرحة والطواف حولها، إذ إن الاعتقاد بأن صاحب الضريح ينفع ويضر هو شرك حقيقي، على صاحبه أن يتوب منه، كذلك الطواف فلا يصح الطواف إلا حول الكعبة.

2- الذبح والنذر لغير الله عز وجل.

3- اتخاذ التمائم والأحجبة ظنًا أنها تؤدي إلى الحفظ والصيانة من أعين الناس.

وقد حصرها - وغيرها - الإمام ابن رجب في الأفعال المنافية لتحقيق معنى (لا إله إلا الله) لأن تحقيقها (يقتضي أن لا إله غير الله والإله هو الذى يطاع فلا يعصي هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفًا ورجاءً، وتوكلًا عليه وسؤالًا منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله لغير الله عز وجل، فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحًا في إخلاصه في قوله: لا إله إلا الله ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا

[28] ص 5 من كتاب الكبائر- تحقيق د. أسامة محمد عبد العظيم حمزة دار الفتح 1410هـ- 1990م.

كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه، أو التوكل عليه أو العمل لأجله، كما ورد إطلاق الشرك على الرياء وعلى الحلف بغير الله، وعلى التوكل على غير الله والاعتماد عليه، وعلى من سوّى بين الله وبين المخلوق في المشيئة، مثل: أن يقول ما شاء الله وشاء فلان، وكذا قوله: مالي إلا الله وأنت، وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد الله بالنفع والضر كالطيرة والرقي المكروهة، وإتيان الكهان وتصديقهم بما يقولون، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهي الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله. ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من هوى النفس أنها كفر وشرك، كقتال المسلم ومن أتى حائضًا أو امرأة في دبرها. ومن شرب الخمر في المرة الرابعة وإن كان ذلك لا يخرجه من الملة بالكلية، ولهذا قال السلف: كفر دون كفر وشوك دون شرك)[29].

وفي العصر الحديث على إثر الاستعمار الغربي ظهر بناء التماثيل والاحتفال بها أو ما يسمى بـ (النصب التذكارية) وهى كلها أصنام والاحتفال بها نوع من الوثنية التي نهى الإسلام عنها.

وربما يتحذلق المتغربون فيعتبرون ذلك من قبيل التمدين والتحضر لا العبادة، لأن الإنسانية ارتقت ومضت عصور الجاهلية الأولى التى كان العرب وغيرهم يعبدون الأصنام أبانها.

ولكن الحقيقة أن وضع التماثيل للموتى يشبه تمامًا ما كان يفعله أهل الجاهلية إذا بحثنا في الأثر الواحد لكلا الفعلين، فإن العبرة بالأثر النفسي الذي يتركه كل منهما، فإن عبادة الأصنام (لا تعني بالضرورة فقط أداء عبادة شعائرية أمام شيء مادي، فصور الزعماء والشخصيات المشهورة عندما تعلق على الجدران بطريقة عامة وتوزع في كل مكان تتسبب بالتأكيد في خلق عبودية فكرية وإجلال إلهي لهؤلاء الأشخاص وخلق عظمة ثابته مؤثرة (بدلًا من عظمة الله

[29] تحقيق كلمة الإخلاص للحافظ ابن رجب ص 16- 18 تحقيق وتعليق د. أسامة دار الفتح 1408هـ-1987م.

سبحانه وتعالى) في عقولهم ونفوسهم، وهذا بالتأكيد شكل من أشكال عبادة الأصنام. فعندما استولت روسيا على بولندا جلبت آلاف الألوف من صور ستالين لتعلق في كل بلدة وقرية هناك.. واعتاد جنود النازي وضع صور هتلر على صدورهم وكانوا عندما يصابون في المعركة ويلفظون أنفاسهم الأخيرة في المستشفيات يشاهدون وهم يقبلون صور هتلر ثم يضعونها على أعينهم)[30].

وبالمثل كان مجتمعنا أيام الزحف الشيوعي باسم الاشتراكية العربية أو العلمية مفتوحًا لكتابات الماركسيين بمجلاتهم المخصصة لعمل التغيير المطلوب لمجتمعنا الإسلامى. ونذكر على سبيل المثال مجلة (الغد) الشهرية الصادرة في يوليو سنة 1953م بمصر مصدرة بصورة فتاتين عاريتي الصدر تحت عنوان (الفن في سبيل الحياة)، ويحمل الغلاف الخلفى صورة تمثال بوجه ستالين.

ويلاحظ أن أول من أدخل صناعة التماثيل هو كمال أتاتورك الدونمي اليهودي واستجلب النحاتين الألمان لينحتوا له تمثالًا! وما زالت تماثيله تملأ تركيا بالرغم من انكشاف خيانته لدينه وأمته.

2- إثبات صفات الله وأفعاله عز وجل:

وعلى رأسها صفة العلو، ونلاحظ أنه وضع عنوان الرسالة التي عرض فيها لهذه المسالة بحيث تشمل الصفات أيضًا فسماها (مسألة صفات الله تعالى وعلوه على خلقه بين النفي والإثبات) إذا ثبت قوة الأدلة والبراهين التي قدمها بشأن هذه الصفة، أصبح من لوازمها إثبات سائر صفات الذات والأفعال لله عز وجل، قياسًا على عبارة الإمام مالك (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة).

إنه يعرض هذه الأدلة في شكل مقدمة مستفيضة عن وجوب إثبات العلو لله تعالى، نلخصها فيما يلي:

---

[30] ص 110/111 من كتاب (الرسائل المتبادلة بين أبو الأعلى المودودي ومريم جميلة عن الدعوة وهموم المسلمين) ترجمة طارق خاطر- ط. المختار الإسلامي سنة 1992م.

أولًا: أن القـــرآن والســـنن المستفيضـــة المتـــواترة وكلام السابقين والتابعين بل وسائر القرون الثلاثـة مملـوء بمـا فيـه إثبات العلو لله على عرشه بأنواع من الدلالات، تارة يخبر أنه خلـــق الســـموات والأرض في ســـتة أيـــام ثم اســـتوى على العرش، وقد ذكر الاسـتواء على العـرش في سـبعة مواضـع، وتارة يخـبر بعـروج الأشـياء وصـعودها وارتفاعهـا إليـه كقولـه تعالى: {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ} [النساء: 158] { تَعْـرُجُ الْمَلَائِكَـةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ} [المعارج: 4] وقوله: {إِلَيْـهِ يَصْـعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10] وتارة يخـبر بنزولهـا منـه أو من عنده كقوله تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [الأنعام: 114] وتارة يخبر بأنه الأعلى كقوله تعالى: {سَـبِّحِ اسْـمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} [الأعلى: 1] وقولـه: {وَهُـوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقـرة: 255] وتـارة يخـبر أنـه في السماء كقوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ} [الملـك: 16] {أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّـمَاءِ أَنْ يُرْسِـلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا} [الملك: 17].

وكذلك قول النبي - صلى الله عليه وسلم -: (ألا تأمنونى وأنـا أمين من في السماء)[31].

ثم يعـرض ابن تيميـة للقضـية أمـام المخـالفين فيفـترض أن يكون الحق إما إثبات هذه الصفة أو نفيها. فإن كان النفى هو الحق فمعلوم أن القرآن لم يبين هذا قـط لا نصًـا ولا ظـاهرًا، ولا الرسول - صلى الله عليـه وسـلم - ولا أحـد من الصـحابة والتـابعين وأئمـة المسـلمين، ولا أئمـة المـذاهب الأربعـة ولا غيرهم.

ثم يعرض للرأي المخالف وفحواه أن هذه النصوص أريـد بهـا خلاف مـا يفهم منهـا، أو خلاف مـا دلت عليـه، أو أنـه لم يـرد إثبات علو الله نفسه على خلقه وإنما أريد بها علو المكانة.

ويبسط ابن تيمية رده على هـذا الـرأى فـاذا افترضـنا صـحته لكان يجب أن يبين للناس الحق الذي يجب التصديق به باطنًا وظاهرًا، بل ويبين لهم ما يدلهم على أن هذا الكلام لم يرد به

[31] رسـالة (صـفات اللـه تعـالى وعلـوه على خلقـه بين النفي والإثبـات) ص 192.
(مجموعة الرسائل والمسائل) طبعة المنار 1344هـ/ 1926م.

مفهومه ومقتضاه، أي أن غاية ما يقدر أنه تكلم بالمجاز المخالف للحقيقة، والباطن المخالف للظاهر[32].

ثم يقول (ومعلوم باتفاق العقلاء أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز فلابد أن يقرن بخطابه ما يدل على إرادة المعنى المجازي، فإذا كان الرسول المبلغ المبين الذي بين للناس ما نزل إليهم أن المراد بالكلام خلاف مفهومه ومقتضاه كان عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذى لم يرد، لا سيما إذا كان باطلًا لا يجوز اعتقاده في الله)[33]، فاذا ثبت أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يفعل ذلك، أصبح المعنى الحقيقى هو المراد لا المجاز.

وبهذا المنهج تقيد الصحابة والتابعون وساروا على طريقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

متابعة أهل القرون الأولى قبل نشأة البدع:

إن الأمة تشهد له - صلى الله عليه وسلم - بأنه بلغ الرسالة كما أمره الله وبين ما أنزل اليه من ربه، وقد أخبر الله بأنه قد أكمل الدين وإنما كمل بما بلغه إذ الدين لم يعرف إلا بتبليغه فعلم أنه بلغ جميع الدين الذي شرعه الله لعباده: كما قال - صلى الله عليه وسلم -: (تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك) وقال: (ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد حدثتكم به وما من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به).

إذا تبين هذا، فقد صح ووجب على كل مسلم تصديقه فيما أخبر به من أسماء الله وصفاته مما جاء في القرآن وفي السنة الثابتة عنه كما كان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، فإن هؤلاء هم الذين تلقوا عنه القرآن والسنة وكانوا يتلقون عنه ما في ذلك من العلم والعمل[34].

وكان الصحابة هم الحلقة بينه - صلى الله عليه وسلم - وبين الأجيال بعدهم، وهم قد استوفوا شروط العلم والعمل من عدة وجوه:

---

[32] نفسه ص 196.
[33] نفسه ص 196.
[34] نفسه باختصار ص 188.

أحدها: قد علم أنه من قرأ كتابًا في الطب أو الحساب أو النحو أو الفقه أو غير ذلك فإنه لابد أن يكون راغبًا في فهمه وتصور معانيه، فكيف من قرأ كتاب الله تعالى المنزل إليهم الذي به هداهم الله وبه عرفهم الحق والباطل والخير والشر والهدى والضلال والرشاد والغي؟ كذلك كانت رغبتهم في فهمه وتصور معانيه أعظم الرغبات وكانت رغبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - في تعرفهم معاني القرآن أعظم من رغبته في تعرفهم حروفه.

الثاني: أن الله تعالى قد حضهم على تدبره وتعقله واتباعه في غير موضع كما قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ} [ص: 29] وقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82].

فإذا كان قد حض الكفار والمنافقين على تدبره، علم أن معانيه مما يمكن الكفار والمنافقين على تدبره، فكيف لا يكون ذلك للمؤمنين؟ وهذا يتبين أن معانيه كانت معروفه بينة لهم.

الثالث: أنه قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} [يوسف: 2] فبين أنه أنزله عربيًا لأن يعقلوا، والعقل لا يكون إلا مع العلم بمعانيه.

الرابع: أنه ذم من لا يفقهه فقال تعالى: { فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا } [النساء: 78] فلو كان المؤمنون لا يفقهونه أيضًا لكانوا مشاركين للكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى به.

الخامس: أنه ذم من لم يكن حظه من السماع إلا سماع الصوت دون فهم المعنى واتباعه فقال تعالى: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: 171] وقال: {أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} [محمد: 16]. فمن جعل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان غير عالمين بمعاني القرآن جعلهم بمنزلة الكفار والمنافقين فيما ذمهم الله تعالى.

السادس: أن الصحابة رضى الله عنهم قرءوا للتابعين القرآن كما قال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوله إلى آخره أقف عند كل آية منه وأسأله عنها.. والنقول بذلك عن الصحابة والتابعين ثابتة معروفة عند أهل العلم بها[35].

وبعد عصورهم المفضلة نشات البدع في العقائد بواسطة المتكلمين وفي العبادات بواسطة الصوفية.

المخالفون لطريقة الرسول صلى الله عليه وسلم

وبعد أن يرسخ ابن تيمية هذا الأصل الكبير من أصول معرفة الدين وعقائده، يذكر أن المعرضين عن طريقته - صلى الله عليه وسلم - في الاستدلال نوعان:

الأول: من لم يكونوا عالمين بصدقه فهم ممن يقال له في قبره: ما قولك في هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فأما المؤمن أو الموقن فيقول: هو عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فآمنا به واتبعناه. وأما المنافق أو المرتاب فيقول: هاها لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته فيضرب بمرزبة من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيءإلا الثقلين.

الثاني: من يظن أنه يستطيع أن يستدل بغير الآيات والأدلة التي دعا بها الناس فهو مع كونه مبتدئًا لابد أن يخطئ كبعض النظار الغالطين أصحاب الاستدلال والاعتبار والنظر، وهو من جنس ظنه أنه يأتي بعبادات غير ما شرّعه توصل إلى مقصوده كبعض أرباب العبادة والمحبة والارادة والزهد[36].

وهذان الصنفان من أهل الباع، صنف يتبع الأهواء وما تهوى الأنفس فيؤصل لنفسه أصل دين وضعه إما برأيه وقياسه الذي يسميه عقليات وهم المتكلمون، وصنف آخر وضع دينه بذوقه ويجعل ذلك حجة وهم الصوفية وكل منهما يحتج من القرآن بما يتأوله على غير تأويله[37].

---

[35] نفسه ص 130، ص 191 باختصار.
[36] النبوات ص 38.
[37] نفسه ص 89.

وتمهيدًا لبحثنا القادم سنهتم بإزاحة الظن عن تعارض أدلة النقل والعقل من طريقنا لأنهما في حقيقة الأمر يتطابقان ولا يتعارضان.

أما الظن بان أدلة العقول هى الأفضل فيرجع الى أسباب منها:

1- النقل الحرفي من الفلسفة اليونانية والتأثر بنظرتها للعقل، ولم يفطن البعض إلى اختلاف مدلول العقل بين الفلسفة اليونانية واللغة العربية، فإن لفظ (العقل) عند فلاسفة اليونان يقصد به جوهرًا قائمًا بذاته، وليس الأمر كذلك في اللغة العربية، كذلك العقل في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والأئمة لا يراد به جوهر قائم بنفسه باتفاق المسلمين وانما يُراد به العقل الذي في الإنسان.

جاء تعريف العقل في (لسان العرب) بأنه: [الحجر والنهي ضد الحمق].

وعن ابن الأنباري: (رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه. والعقل التثبت في الأمور. والعقل القلب، والقلب العقل.

وسمي العقل عقلًا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك؛ أي يحبسه.

ويتضح من هذه التعريفات الحفاوة بالعقل، واعتباره أداة للمعرفة كما أن له مدلول أخلاقي.

ولكن مع هذا التقدير المتميز للعقل لغة واصطلاحًا، ظل علماء السنة يضعونه في مكانته بالموازنة مع الشرع، فالشرع هو المقدِّم، ويأتي دور العقل ليؤدي دوره في الفهم والتفسير والاستنباط والاستدلال.

هذا، وقد مدح الله تعالى مسمى العقل في القرآن الكريم في غير آية.

كذلك يقرر ابن تيمية أن القرآن الحكيم مملوء من ذكر الآيات العقلية - أي التي يستدل بها العقل، وهي شرعية دل عليها وأرشد إليها، لكن كثيرًا من الناس لا يسمى دليلًا شرعيًا

إلا ما دل بمجرد خبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو اصطلاح قاصر فكيف يزعم البعض أن الأدلة الشرعية غير عقلية والآيات القرآنية الحاضة على النظر العقلي بلغت من الكثرة حدًا يلفت النظر[38]؟.

وأيضا وفي هذا الغرض يقول الدكتور صبحى الصالح- رحمه الله تعالى تحت عنوان: وظيفة العقل في استنباط الأدلة:

والإشادة بالعقل لم تكن - كما يتهم المستشرقون والباحثون الغربيون عامة - مزية للمعتزلة وحدهم، كأن غيرهم لم يع قيمتها، ولم ينزلها منزلتها، فما يستطيع مفكر مسلم - مهما يعول علي النصوص والغيبيات - أن يقاوم وظيفة العقل في استنباط الأدلة واكتساب المعارف، وإنما أتيح للمعتزلة تبعًا لمنهجهم القائم على العقل أصلًا والنص تبعًا - أن يغلوا في هذا الميدان غلوًا بعيدًا، نراه نسبيًا أبعد عن مناخ الإيمان والروح من ابتعاد الأشاعرة مثلًا من مناخ المنطق والبرهان.

ويمكننا أن نلاحظ أن القرآن، بمنطقه الوجداني البالغ التأثير، وإن تجافى عن الطريقة المنطقية المباشرة في الاستدلال، يدعو أول ما يدعو الى استخدام الطاقة (الفكرية) لدي تقرير الدلائل (العقلية) وإيراد الحجج والبراهين على حقائق الكلون والحياة، وحسبنا في هذا الصدد قوله تعالى علي وجه الإجمال: {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [الحشر: 2].

ومن أوضح الشواهد القرآنية على هذا المنهاج الاستدلالي ما نجده في أواخر سورة يس عند إثبات البعث والنشور من سرد رائع لمقدمات متعاقبة تنتهي بالناظر فيها إلى التسليم بصحة هذه العقيدة من غير ارتياب.

{أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (80) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} [يس: 77 - 81].

[38] النبوات ص 52 ط السلفية.

وإلى قيمة هذا الاستدلال العقلي، شبه المنطقي، نبه كثير من المشتغلين بالفلسفة وعلم الكلام، كالإمام فخر الدين الرازي الذي قال: (بل أقر الكل بأنه لا يمكن أن يراد في تقرير الأدلة العقلية على ما ورد في القرآن، وكحجة الإسلام الإمام الغزالي الذي قال: (وأول ما يستضاء به من الأبواب ويسلك من طريق النظر والاعتبار، ما أرشد إليه القرآن، فليس بعد الله بيان)[39].

2- اختلط على البعض في العصر الحديث المفاهيم الدينية المسيحية مع المفاهيم الإسلامية، ففي الأولى هناك تمييز بين المعرفة العقلية والمعرفة القلبية (العاطفية). وانبثق عنهما اتجاهان، يرى أحدهما أن الإيمان قبل العقل، والثاني يعكس الترتيب. (وينسبان إلى القدِّيسين أوغسطين وتوما الأكويني).

3- الاكتفاء بالاطلاع على مؤلفات المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة، بينما يتطلب البت في هذه القضية الهامة الاطلاع على مؤلفات علماء الحديث والسنة الذين تنبهوا منذ العصور الأولى إلى أن أدلة القرآن الكريم تستند إلى النظر العقلي، وإن هناك آيات لا حصر لها تأمر بالنظر والتدبر والتفكر، فضلاً عما تتضمنه من براهين عقلية كأفضل ما تكون هذه البراهين: مثل أدلة إثبات صفات الكمال لله عز وجل وإثبات البعث وصدق نبوة الأنبياء.

4- تطبيق فكرة (التطور) على عقائد الإسلام، وهذا المنهج إن صح في عرض العقائد الدينية الأخرى، فلا يصح عند عرض العقائد الإسلامية، بل يؤدي إلى التصادم مع حقائق الوحي الإلهي في قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3] وهي الآية التي نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم عرفة في حجة الوداع.

5- التعصب للآراء والتشبث بها - لا سيما إذا نشئ عليها - دون إفساح الصدر للآراء المخالفة.

---

[39] من مقالته بعنوان (الأسس المشتركة بين الديانتين في ميادين المعتقدات)، ص 57 مجلة العلم والإيمان العدد التاسع 9/1396هـ-9/1976م ج. ع. ل- تونس.

بعد هذا التمهيد الضروري، سنتناول فيما يلي شرح قضية (البراهين العقلية على صحة العقائد الإسلامية) ولها رافدان:

الأول يتناول نظرية المعرفة.

والثاني يتناول السلوك أو الطريق إلى الله عز وجل، حيث يظن قطاع كبير من الباحثين والدارسين - فضلًا عن عامة المسلمين - أن هذا الطريق قاصر فقط على الصوفية؛ بينما سنرى كيف وضح ابن تيمية معالمه كأحسن ما يكون نقيًا من شوائب البدع وخليط الملل والنحل.

أولًا- نظرية المعرفة:

في هذا المبحث سنعرض للعديد من المسائل التي دار النزاع حولها، منها: طرق الحجاج والجدل مع المخالفين في المنهج والرد على الشبهات التي أثاروها، وتهمة التجسيم التي وصفوه بها مع كل من خالف مناهجهم التي (ظنوا) أنها (عقلية). وأيضًا البرهنة بالأدلة العقلية على صحة منهج علماء الحديث، ودفع شبهة (النصيين أو الحرفيين)، مع التوسع في شرح استدلالاتهم العقلية التي تفوقوا بها على مخالفيهم في الرأي[40].

[40] ونلاحظ اتساع نطاق الحرب (الكلامية) في العصر الحديث، مع اختراع ألفاظ أخرى وشعارات خادعة للتمويه والتضليل أمثال [عميات التغريب والتحديث والعلمانية والتحضر أو التمدن والتعاون التكنولوجي للبلدان المتخلفة والمعونة الأجنبية والتنمية الاقتصادية، والتقدم، وكلها تهدف إلى الدوران حول العقائد الثابتة وزحزحة المسلمين عن مفردات وألفاظ الكتاب والسنة واصطلاحات علوم الإسلام كأصول الدين والفقه والحديث وأحكام الشرع من الحلال والحرام والمكروه والمباح يُنظر كتاب (الإمبريالية الغربية تتوعد المسلمين- مريم جميلة- ترجمة وتعريب طارق السيد خاطر- ط المختار الإسلامي).
هذا بينما توجه طلقات المدافع الكلامية نحو المستمسكين بعقائدهم، المتابعين لمناهج علماء أمتهم. فمن الألفاظ الموجهة: الجمود والتحجر والتزمت، والانغلاق وعدم الواقعية وقلة المرونة (هذا مع الدعوة إلى التأقلم والتغير - ولنلاحظ التركيز على التغير- بما يناسب ظروف العصر، ويقول الدكتور جلال أمين: ناهيك عن التلميح أو التصريح بأننا نعيش في عصر لابد أن يصبح فيه الأعداء القدامي أصدقاء لنا، ما دام أن المصالح الاقتصادية تشير بذلك (من مقال: حقًا.. إنه عالم متغير) مجلة الهلال القاهرية إبريل سنة 1994 ص 32.

بالإضافة إلى تحليل قضايا متصلة اتصالًا وثيقًا بالعقائد وعلى رأسها تنزيه الله عز وجل باثبات صفات الكمال بالإطلاق وتحليل شبهة التجسيم التي رماه بها خصومه ظلمًا، كما يدلل بالبراهين العقلية الشرعية على إثبات صفة العلو لله عز وجل.